وصف المعارک الحربیّة فی شعر المتنبّی

فاطمه قادری

عضو هیأت علمی دانشگاه یزد

المستخلص

ان المتنبی شاعر مشهور فی‌الدرجة الاولی من الاشتهار فی‌الادب العربی، و شعره فی‌المرتبة الاولی من‌المتانة والبلاغة و مشهور بفخامة المعانی و متانة المبانی، و انه لم یَدَع باباً من أبواب الشعر الاّ طرقه و أجادفیه، خاصّة المدیح والفخر والحِکم والحماسة والعتاب، و کان المدیح والفخر یغلبان علی کل فنٍّ من فنونه

فعندما نتصفح دیوان الشاعر نجد فی تضاعیف مدائحه لسیف الدوله الحَمدَ انّ ابیاتاً جمیلة عن المعارک الحربیة التی شارکها الشاعر مع أمیرالعرب انه وَصَف المعرکة أدق وَصفٍ فقد وَصفَ جیوش الاعداء و سلاحهم و خیلهم، کما وصَفَ جیوش العرب و سیوفهم و رماحهم و خیولهم، و کما وصَفَ أرض المعرکة.

هذه المقالة تعالج وصف هذه المعارک فی شعر المتنبی، فلذلک استُخرجَت الابیات المتناثرة خلال القصائد فی وصف الحروب، و وصف مافیها من السّیوف والرّماح والغبار، و ما الی ذلک. کما تقوم بدراسة اربع قصائد مختارةٍ فی الدیوان وصف فیها الشاعر المعارک الحربیة، و فی‌الحقیقة أن هذه القصائد مدحٌ لسیف الدولة، والمتنبی فی خلال مدحه یصوّر القتال تصویراً باهراً.

الوصف فی‌الجاهلیة

کان الوصف من الموضوعات المهمة فی‌الشعر الجاهلی و من الفنون البارزة التی برع فیها الشعراء الجاهلیون، فقد نظروا فی‌الطبیعة الصحراویة وأمعنوا النظر فیها، فوصفوا کل ما وقعت علیه أعینهم من الحیوان والنبات والازهار والامطار، و قد عُنوا بکل صغیر وکبیر من مشاهد الصحراء و لم یترکوا شیئاً الاّ سجلوه فی شعرهم فنستطیع أن نقسم وصفهم الی:

۱ـ وصف الاطلال: عند ما یأتی الشاعر لزیارة حبیبته یجد أهلها قدارتحلوا الی مکان آخر فیقف علی الاطلال التی تدل علی نزول اهل الحبیبة و مکوثهم هناک. و یصفها و یصف ماحولها.

۲ـ وصف الراحلة: کان الشعراء یذکرون بعد غزلهم و تشبیبهم وصف رحالاتهم فی‌الصحراء، و یتطرقون الی وصف رواحلهم و کان للحیوان اثر کبیر فی‌حیاتهم، و هو اقرب الی نفوسهم و عواطفهم فقد اعتنوا به عنایة خاصة فوصفوا جسمه و قوته و صفاته و حرکته، حتی عرف بعض الشعراء بالاجادة فی‌وصف حیوان واحد و الإمعان فی وصفه.[۱]

۳ـ وصف الصید: کان الشاعر الجاهلی یصید لغرضین إما طلباً للمعاش أواللهو و إمّا انه کان یرافق الملوک الذین یذهبون الی الصید.

۴ـ وصف الطبیعة: کان الشاعر یصف الطبیعة ممثلة فی‌حیوانها و ازهارها و نباتها و یتأمل فی‌امطارها و سحبها و برقها و ضیائها و ظلامها، و قد اکثر الشعراء من وصف الخصب کما اکثروا من وصف الجدب.[۲]

الوصف فی‌الاسلام

لم یخرج الشعر الاسلامی عن الاطار العام فی‌الجاهلیه، و من ناحیة الاغراض العامة والموضوعات المتداولة کما کان علیه فی‌الجاهلیة و ان دخله بعض التجدید فی‌المعانی والاسالیب و من ناحیة الوصف نجد فی تضاعیف مدائحهم وصفاً لحروب الممدوح وانتصاراته علی‌العدو و قد وصفوا کثیراً مما یشاهدون فی فتوحهم من المعاقل والحصون والحیوان.

الوصف فی‌العصر العباسی

اتسع الوصف فی‌العصر العباسی اتساعاً کبیراً، و تناول مظاهر البیئة الجدیدة من الهیاکل والجنائن و المآکل والملابس والخمر والزهر.

توسع الشعراء فی هذا العصر فی‌وصف الریاض والازهار و عدلوا عن وصف الاطلال الی وصف القصور، و یصفون فی مقدمات مدائحهم الطبیعة فی‌الحاضرة ببساتینها و ریاضها، و قد اکثروا من وصف الریاض کما اکثروا من وصف الامطار والسحب و اکثروا من وصف الحیوان والطیر والحشرات، وکثر فی هذا العصر وصف الخمر و من وصّافها ابونواس، و وصف الغلمان و من فعل ذلک حماد عَجرد ثم حسین بن الضحاک. و قد وصف الشعراء الخیل والمعارک ونحوها و کانوا یصوّرون بسالة القواد الذین ساهموا فی‌الحروب و لم یترک الشاعر العباسی معرکة من معارک العرب ضد الترک والثائرین فی‌شرقی الدولة، و ضد البیزنطیین فی‌آسیا الصغری الا سجّلها فی مدحه، یصوّر القواد الذین ساهموا فی‌هذه الحروب. و لم یکتف الشعراء بهذا التصویر فقد سجّلوا کلَّ مایستطیعون من تفاصیلَ عن المعارک الحربیة و بذلک اصبحت قصائدهم تاریخاً و هو یمثّلُ تاریخ الابطال و أمجادهم الحربیة[۳]. و ممن أجاد فی‌هذا الوصف، المتنبی.

أغراض المتنبی

لو قرأنا دیوان المتنبی لبدَت لنا أغراض متنوعة أحاط الشاعر بها جمیعاً، و اننا نستطیع أن نفهم من قراءة الدیوان أنَّ المتنبی تفوق فی‌أغراضٍ معیّنة، هی‌المدح والفخر والحکمة والهجاء والرثاء والوصف.

الوصف عند المتنبی

المتنبی بارع فی‌الوصف، سواء وصف الطبیعة أوالحیوان أوالانسان واخلاقه، و أبدع فی وصف الاخلاق و تصویر الحیاة والاشخاص، فمن قصائد المتنبی الوصفیة، القصیدة التی مدح بها بدرابن عمار، بعدما انتصر فی معرکة اشتبک فیها مع أسدٍ هاجمه و هو علی فرسه.

وردٌ اذا وَرَدَ البـحیرةَ شـارباً وَرَدَ الفـراتَ زئـیرُهُ والنـیلا
یـطأ الثری مـترفقاً مـن تیهه فکأنـه آس یـجسُّ عـلیلا[۴]

وصف المعارک الحربیة

أحسن مدیح المتنبی یأتی مع وصف المعارک. قال عنه ابن الاثیر: «اذا خاض فی‌وصف معرکة کان لسانه أمضی من نصالها و أشجع من ابطالها و قامت اقواله مقام افعاله حتی نظن الفریقین قد تقابلا والسلاحین قد تواصلا» و قال هو عن نفسه:

و ما الدهرُ الا من رواة قصائدی اذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ منشدا
فسار به من لا یسیر مشمراً و غنی به من لایغنی مغردا[۵]

ان المتنبی یصف المعارک أحسن وصف و ذلک لانه فارس شهد المعارک مع سیف الدولة فأجاد وصفها و لم یبرع فی وصف الحروب الا عند صاحب حلب، و وصف الجیوش اروع شعر المتنبی و أفخمه، و کان المتنبی فی مدائحه لسیف الدولة مصدّراً لحروبه و مورّخاً[۶]. و اخبار انتصارات سیف الدولة علی اعدائه من عرب و غیر عرب قد ملأت الدنیا حتی أصبح فارس العرب، و ان لم تکن فترة حکم سیف الدولة طویلة، ولکنها کانت ملیئة بالاحداث الجسام، فهی مرحلة حرب مستعرة مع الروم، و مع الامراء العرب الذین یطمحون لتوسیع ملکهم، والمتنبی یصوّر تصویراً حیاً ملاحم تلک البطولة[۷]. فشعره فی وصف المعارک شعر حماسی، لان الحماسة فن‌الحرب والقتال والشجاعة والتغنی بصفات البطولة والرجولة و رکوب المخاطر و وصف الکروالفر و جرحی و قتلی وسلاح و دماء والدعوة للحرب والأخذ بالثأر، و ما الی ذلک، و شعرالحماسة من اصدق الاشعار و أشدها اثراً فی‌النفوس، ذلک لانَّ الشعراء کانوا أنفسهم فرساناً یخوضون غمرات القتال فیعبّرون عن واقع مشهود و تجارب نفسیة صادقة، وان لم یکن بعضها یخلو من المبالغة و مجاوزة الواقع[۸].

یصور المتنبی فی‌شعره اهوال القتال و قتلی و جرحی و لمعان السیوف و تراشق السهام، کما یصور الجیش و غبارالحرب و ارض العدو و غیرذلک، و یعبّر عن کل هذه المعانی تعبیراً جمیلاً؛ و نحن نأتی بنماذج من اشعاره فی هذه المعانی.

وصف بريق السيوف

و عَجاجةً ترک الحديدُ سوادَها　　زنجاً تَبسَّمُ أو قذالاً شائبا

شبة الشاعر لمعان السيوف فی سواد الغبار الحاصل من تلاقی الجيشين بتبسم الزنج أو شيب القذال.

فكأنّما كُسی النهارُ بها دُجی　　ليلٍ و اطلعت الرماحُ كواكبا[9]

شبّه بياض الحديد فی سواد الغبار بطلوع الكواكب فی‌الليل.

وصف الدرع

تَردُّ عنه قَنَا الفرسانِ سابغةٌ　　صوبُ الأَسِنَّة فِی‌اثنائها دِيَمُ

تخطّ فيها العوالی ليس تنفُذُها　　كانَّ كلَّ سنانٍ فوقها قَلَمُ[10]

ان الدرع السابغة تمنع الرماح من النفوذ فيها، والدرع قد تلطخت بالدماء التی تسيل من الاسنة عليها، يعنی ان الاسنة تتابع فی ضرباتها كديمة المطر، و ان الرماح توثر فی درعه ولكن لاتنفذ الی جسمه، حتی كأنها قلم فی كاغذ يكتب ولكن لايخرقه.

وصف الغبار

فأقبلها المروجَ مسوّمات　　ضوامَر لاهزالَ ولاشيارُ

تثير علی سليمة مسبطرّاً　　تناكرُ تحته لولا الشعارُ

عجاجاً تعثر العقبانُ فيه　　كأنَّ الجو وعثٌ أو خَبارُ[11]

يصف الشاعر فی‌هذه الابيات الغبار المثار من حركة الخيول ففی‌البيت الاول يصف الخيل و يقول انها ضوامر، ولكن ضمرها ليس بسبب الهزال بل لتضميرها فی ميادين و ليس عيباً لها، و هذه الخيل تثير غباراً لايعرف الجيش تحت هذا الغبار بعضهم بعضاً لولا العلامة التی يتعارفون بها، و لكثافة هذا الغبار، تعثر العقبان فيه، كأنها تطير فی ارض لينة تغوص فيها أرجلهم فتعثر.

وصف الفرس

و تُسعِدُنی فی غَمرة بعد غَمرة سَبوحٌ لها منها علیها شواهد
تثنی علی قدر الطعان کانما مفاصلُها تحت الرماح مراودُ[12]

یصف الفرس وصفاً جمیلاً ویقول: تعُیننی علی التوارد فی‌الحروب فرس سریعة کانها تسبح فی جریها و یشهد بکرمها خصال لها منها شواهد علیها و هذه الفرس تمیل مع الرماح و مفاصلها فی‌سرعة استدراتها مسمار المرود (الذی) یدور مع حلقته، لانّ مفاصلها لینة

وصف الجیش

فکان الغربُ بحراً من میاه و کان الشرقُ بحراً من جیادٍ
و قد خفقت لک الرایاتُ فیه فظَلَّ یموجُ بالبیض الحدادِ[13]

فی‌الجانب الغربی بحرٌ من الماء و فی‌الجانب الشرقی جیش الممدوح و قد شبه الجیش بالبحر لکثرته و کثرة ما فیه من بریق الاسلحة، فیقع الاعداء بین بحرین، بحرٌ من الماء و بحرٌ من الجیش، والاعلام تحرکت له فی‌هذالبحر، والبحر یموج بالسیوف. شبه حرکة السیوف فی‌ذلک الجیش العظیم بحرکة الموج فی‌البحر.

وصف القتلی

القَت الیک دماءُ الروم طاعتَها فلودعوتَ بلا ضربٍ اجابَ دَمُ
یسابقُ القتلُ فیهم کلَّ حادثة فما یصیبهم موتٌ ولا هَرَمُ[14]

لکثرة القتلی کان دماء الاعداء تطیع سیف الدولة بحیث لودعاهم للقتال لاجابت الدماء و سالت قبل الضرب، و انه یقتلهم قبل ان یموتوا من المرض أو الحادثة أویهرموا و یموتوا من کبرالسن فهو یسابق الحوادث والامراض.

و قلوبٌ موطّنات علی الرَّو ع کأنَّ اقتحامَها استسلامُ
قائدوا کل شطبة و حصانٍ قد براها الاسراج والالجامُ
یتعثرن بالرؤوس کما مَرَّ بتاءاتِ نُطقِهِ التمتامُ[15]

انهم شجعان قدعوّدوا انفسهم الاقتحام فی‌الحرب کأنهم لاسترسالهم و انبساطهم علی

الحرب يطلبون الصلح والسلم و يقودون الى الحرب أفراساً قد انهلتها الحرب، و لكثرة القتل يمشى هذا الخيل على رؤوس القتلى. ان الارض مليئة بُجثَثِ القتلى فلذلک لامجال للخيل الا ان يمشى على رؤوس القتلى.

و على التراب من الدماء مجاسد — و على السماء من العجاج مُسوحُ
يخطوالقتيلُ الى القتيل امامَهُ — رَبُّ الجواد و خلفَهُ المبطوحُ[16]

صبغت الارض لكثرة الدماء المسفوكه، فكأن الارض لكثرة القتلى و دمائهم صبغت بالجساد، و لكثرة الغبار اسودت السماء. ثم يقول كثرت القتلى و يخطو الفارس من قتيل الى قتيل و يخلف وراءه قتيلاً.

وصف بلاد الروم

و أشقى بلاد الله ما الرومُ اهلها — بهذا و ما فيها لمجدک جاحِدُ
شَنَنْتَ بها الغاراتِ حتى تركتها — وجَفنُ الذى خلفَ الفرنجة ساهدُ
مخضبةٌ والقوم صرعى كأنها — ـ و ان لم يكونوا ساجدين - مساجدُ[17]

ان اشقى بلادالله البلاد التى اهلُها الروم و شفاؤها بهذا لانک لاتكترث غمرات الحروب ولكنهم يعترفون بمجدک ولا يجحدون شجاعتک، و هذه البلاد ملطخة بدماء القتلى كأنها مساجد والقتلى المطروحون فيها كأنّهم يسجدون على‌الارض و ان لم يسجدوا حقيقةً. شبَّه البلاد بالمساجد و شبه المقتولين بالذين يسجدون على ارض تلک المساجد.

وصف فراردمستق

فولّى وأعطاکَ ابنَه و جيوشَه — جميعاً و لم يُعطِ الجميع ليُحمَدا

انهزم الدمستق واعطى ابنه و جيوشه و لم يكن هذا الاعطاء طلباً لمجدک بل انه تركهم عجزاً، أى أراد أن ينجو بنفسه فتركهما اسرى فى‌يدک.

عرضتَ له دونَ الحياة و طرفه — وأَبصر سيف‌الله منک مجردا
و ما طلبت زرقُ الاسنة غيرَه — ولكنَّ قسطنطين كان لهُ الفدى

فاصبح یجتابُ المسوحَ مخافةً و قد کان یجتاب الدلاص[1] المسرّدا[18]

ان الرماح لم تکن تطلب غیر الدمستق ولکن ابنه اصبح فداء له، وانتهز دمستق الفرصة و نجا بنفسه، و انه ترک الحرب خوفاً منک، و لبس المسوح[2] بعد أن کان یلبس الدروع.

معرکة خرشنة

ان المتنبی فی‌مدائحه لسیف الدولة یصور بطولته و بطولة کتائبه و جنوده، و فی‌الحقیقة مدائحه أناشید حربیة یُسمَع فیها قعقعة السلاح و رنینه الضخم، و من أروع هذه الاناشید عینیته التی صور فیها معرکة خرشنة. و کان سیف الدولة قد انتصر فیها انتصاراً عظیماً وانهزم الدمستق و قُتل خلق کثیر من جیوشه و أسِر جمع کثیر منهم غیر أنّ جیش سیف الدولة أمعن فی بلاد الروم و کره علی التراجع بعد أن سئمه الحرب ففاجأه العدو، فانهزم بعد أن انتصر، والمتنبی یصور بلاء سیف الدولة و جنده تصویراً باهراً، اذ یقول فی‌قصیدته التی مطلعها:[19]

غیری باکثر هذا الناس ینخدع ان قاتلوا جَبنوُا أوحدَّثوا شجعوا

ثم یصف بطولة سیف الدولة و تفرده فی‌الشجاعة لتخفیف احزان الهزیمه، یقول:[20]

بالجیش تمتنع الساداتُ کلهم والجیش بابن ابی الهیجاء یمتنع

یعترف بالهزیمة و یلوم الجند الذی خذل امیره، ذلک الامیر الذی هو ملاذ جیشه حین کان الجیوش یحمون و یقوون السادة، أی ان قدرة الملوک و عزتهم بجیوشهم، ولکن قدرة الجیش و عزته لسیف‌الدولة و هم یقوون و یمتنعون به، ثم یقول:

قادَ المقانب أقصَی شربها نهل علی الشکیم وأدنی سیرها سِرَعُ
حتی أقام علی أرباض خرشنة تشقی به الروم والصلبان و البیعُ
للسَبی ما نکحوا والقتل ما ولدوا والنهب ماجمعوا والنار ما زرعُوا
مخلیً له المرجُ منصوباً بصارخةٍ له المنابرُ مشهوداً بها الجُمَعُ
یُطَمّعُ الطیر فیهم طولُ أکلهم حتی تکاد علی احیائهم تَقَعُ[21]

ان سیف الدولة قاد الجیوش الی العدو حتی ان خیولهم اذا ارادت ان تشفی عطشها اکتفت بجرعة واحدة و هی ملجمة، ثم أسرع بجیوشه اسراعاً شدیداً حتی نزل بارباض

۱- الدلاص: الدرع البراقة الصافیة. ۲- المسوح: ثیاب تنسج من الشعرَ.

خرشنة فسبى النساء و قتل الاولاد و نهبَ الاموال، و حرق الزروع، حتى استسلمت بعدها مدينة صارخة، و فرَّ اهلُها، و نصب الجيش المنابر بأرضها و شهد الجمع و أصبحت من ديار الاسلام. و لكثرة ما أكل الطير من لحوم جثث الاعداء المبعثرة فى العراء الفت لحومهم حتى تكاد تقع على احيائهم. ثم يقول:

كأنها تتلقاهم لتسلكهم — فالطعن يفتح فى‌الاجواف ما تَسعُ
تهدى نواظرُها والحربُ مظلمةٌ — من الاسنة نارٌ والقنا شمعُ[۲۲]

أى كان خيله تتلقى الروم لتدخل فى‌اجسادهم فان الطعن يحدث فى اجوافهم شقوقاً واسعة تسع الفرس ليدخل منها، و اذا ما اظلمت الحربُ بالغبار تهدى عيون خيله بضوء اسنة الرماح، كأن الاسنة نار والقنا شمع. انه أبدع فى وصف بريق السلاح، شبَّه بريق الاسنة فى رؤوس القنا بالنار فى‌رأس الشمع ثم يقول فى وصف هذه المعركة:

اذا دعا العلجُ علجاً حال بينهما — أظمى تفارقُ منه اختُها الضلَعُ

أى اذا استغاث العلج صاحبه اعترض بينهما رمح أسمر يفرق بين الضلعين. ثم يقول انه اقدر الناس على تحويل الانكسار الى نصر رائع لانه:

من كان فوق محل الشمس موضعُه — فليس يرفعه شىءٌ ولا يضعُ
ان السلاح جميع الناس تحملُه — وليس كلّ ذوات المخلب السَبُعُ[۲۴]

أى من كان فى غاية الرفعة والمكانة لايسمو بنصره أَحَد ولا يتضع بِخذلان أحد، و ليس كل من يحمل السلاح شجاعاً كما أنه ليس كل ذى مِخْلَب اسداً مفترساً.

معركة الحدث الحمراء

سبب هذه المعركة أن الروم هاجموا قلعة الحدث و هدموها فتوجه اميرحلب و معه خمسمائة من حرسه الخاص اليها و هاجمه الروم و وقع القتال بينهم فلم يستطع الروم أن يتغلبوا عليه، فظفر سيف الدولة و قتل ثلاثة آلاف منهم و أسر خلقاً كثيراً فأقام سيف الدولة فى‌الحدث حتى أتم بناء القلعة، وكان المتنبى الى جانب الامير فى تلك المعركة، فأنشد هذه القصيدة يمدحه[۲۵]:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم — و تأتى على قدرِالكرام المكارمُ

الی أن یقول:

أتوک یجرّون الحدید کأنّما سروا بجیادٍ ما لهُنَّ قوائمُ
اذا برزقوا لم تعرف البیضُ منهم ثیابُهم من مثلها والعمائمُ
خمیسٌ بشرق الارض والغرب زحفه و فی اذن الجوزاء منه زمازمُ[۲۶]

یصف فی هذه الابیات جیش الروم بأنهم یجرون الحدید لکثرة ما علیهم من السلاح، ولکثرة ما علیهم من الحدید، انهم کالسیوف أی لبسوالدرع والخوذ فثیابهم و عمائمهم من الحدید فلذلک لایفرق بینهم و بین سیوفهم، و هذا الجیش لکثرته ملأشرق الارض و غربها و بلغ صوته السماء.

ثم یصوّر الشاعر سیف الدولة، و قد وقف فی ساحة القتال حین لایشک واقف فی‌الموت، و یشهد انهزام الروم فلشدَّة القتال کانه وقف فی جفن الردی والردی عنه نائم فلم یبصره والابطال البیزنطیون یمرون به مجروحین منهزمین و هو مشرق الوجه باسم الثغر، و یصف المتنبی سیف الدولة بأنه فوق حدّ الشجاعة والعقل ثم یجعله عالماً بالغیب و واقفاً علی اسرار المستقبل. یقول:

وقفت و ما فی‌الموت شک لواقف کانک فی جفن الردی و هو نائم
تمُر بک الابطال کلمی هزیمةً و وجهک وضّاح و ثغرک باسم
تجاوزتَ مقدار الشجاعة والنُهی الی قول قومٍ انت بالغیب عالم[۲۷]

وانتهی الشاعر الی وصف الخیل فیقول:

تدوسُ بک الخیلُ الوکورَ علی الذری و قد کثرت حولَ الوکور المطاعمُ
تظن فراخ الفتخ أنک زُرتها بأمّاتها و هی العتاق الصلادمُ
اذا زلقت مشیتها بطونها کما تتمشی فی‌الصعید الا راقمُ[۲۸]

ان الخیل قد تابعت الروم الی رؤوس الجبال حیث وکور جوارح الطیر، تقتلهم حتی تکثر مطاعم الطیر حول أوکارها و ظنت فراخ العقبان أن خیل سیف الدولة أمّاتها لشدتها و سرعتها، و هی اذا زلقت فی صعودها الجبال و لم یستطع ان تسیر علی رجلیها تزحف علی بطونها کما تزحف الحیات.

معركة الدَّرب

هی آخر معارک سیف الدولة و آخر معرکة وصفها المتنبی، و کانت قصیدته فیها آخر قصیدة فی سیف الدولة قبل رحیله عن حلب.

کانت معرکة الدرب انتصاراً عظیماً لسیف الدولة و کانت قصیدة المتنبی من أروع الشعر، و قد وصف المتنبی حرکةَ الجیش العربی الی المعرکة، و فَصَّل الاماکن والاحداث و أطوار المعرکة و ملابساتها، بحیث صبغَ القصیدة بصبغة الشعر الملحمی[۲۹]، یقول:

عقبی الیمین علی عقبی الوغی ندمُ ماذا یزیدک فی اقدامک القسمُ

انَّ البطریق أقسم عند ملکه أنه یلقی سیف الدولة فی الحرب و یظفر، فدخل الحرب و خاب ظنه، فذکر المتنبی ذلک یهجوه و یقول من اطمأن بظفره فلربما لایظفر، فتکون عاقبته الندم، لانّ القسم لایزید فی الاقدام ثم یقول الشاعر فی وصف سیف الدولة:

کلُّ السیوف اذا طال الضرابُ بها یمسُّها غیر سیف الدولة السأمُ[۳۰]

أی کل السیوف اذا ضرب بها کلّت و نبت الا سیف الدولة فانه لایسأم من مقارعة الابطال. و یصل الی وصف الجیش و یتتبع حرکة الزحف ویقول:

جیشٌ کانک فی ارض تُطاولُه فالارض لاأَمَم والجیش لاأُمَمُ

اذا مضی علمٌ منها بدا علمٌ و ان مضی علمٌ منه بَدا علمُ[۳۱]

أی ان الارض کانت طویلة ممتدّة فلذلک تطاول جیشک البعید أطرافه أی کلاهما طویلٌ و کأن الارض البعیدة أدَّت الی تطاول الجیش، والاعلام من الارض و من الجیش کثیرة بحیث کلما غاب جبل ظهر جبل آخر کذلک الجیش فکلما مضت رایة فیها بدت رایة أُخری لامتداد صفوف الجیش أی لایفنی الجیش کما لاتفنی الارض.

معرکة مع الروم

ان الشاعر یمدح سیف الدولة بهذه القصیدة عند منصرفه من بلاد الروم وعلی هذه المدیحة مسحة من الحماسة یصف الممدوح بالخوض فی معرکة هائلة، و خروجه منها بالنجاح و یصف الجیاد و ارض المعرکة و تجمّع الاعداء[۳۲]. هذه القصیدة هی:

الرأی قبل شجاعة الشجعان هو اوّل و هی المحل الثانی[۳۳]

بدأها بمقدمة، ثم تخلّص الی وصف الممدوح فی ابیات فبلغ الی وصف جیاد

الممدوح و خیله حیث قال:

کل ابن سابقة یُغیر بحسنه فی قلب صاحبه علی الاحزان
ان خُلِیّت رُبطَت بآداب الوغی فدعاؤها یُغنی عن الارسان
فی محفلٍ سترَ العیونَ غبارُه فکأنّما یُبصرنَ بالآذان
یرمی بها البلدَ البعید مظفَّرٌ کلُّ البعید له قریبٌ دان
فکأن أرجلها بتربة منبج یطَرْحن أیدیها بحصن الران
حتی عَبَرْن بارسناس سوابحاً ینشرن فیه عمائم الفرسان[۳۴]

ان جیاده من ولد کرائم الخیل و بحسنها یسرّ صاحبها و یذهب الحزنُ عن قلبه، و انها تدرَّبت بفنون الحرب، فاذا ترکها صاحبها لم تترک مکانها، حتی اذا دعاها صاحبها اسرعت الیه، ولاتحتاج الی الرَّسن، و ان صاحبها یقودها فی جیش عظیمٍ غبارُه ستر العیون فانها یبصرن بالآذان بدل العیون، یقود سیف الدولة هذه الخیل الی بلد بعید و هو قائدٌ کل بعید له قریب، وکأنّ ارجلها بالشام وایدیها بالروم، أی لها خطوات واسعة و هی تبلغ الروم بخطوة واحدة مع أنَّ بینهما مسافة بعیدة، فقد عبرن نهر ارسناس بسرعة فنشرن عمائم الفرسان فی هذا النهر و بعد ذلک یصف النهر و یصوّره تصویراً ملحمیاً، حیث یقول:

والماءُ بین عجاجتین مخلّصٌ تفترقان به و تلتقیان
رکض الامیرُ وکاللُّجین حبابُهُ وثنی الاعنةَ و هو کالعقیان
فتلَ الحبالَ من الغدائرِ فوقَهُ و بنی السفینَ لهُ من الصلبان
و حشاهُ عادیةً بغیر قوائم عقم البطونِ حوالک الالوان
تأتی بما سبَتِ الخیولُ کأنها تحت الحسانِ مرابضُ الغزلان
بحرٌ تعوَّد أن یذمّ لاهله من دهره و طوارقِ الحدثان
فترکتَهُ و اذا أذَمّ من الوری راعاک واستثنی بنی حَمدانِ[۳۵]

کان النهر عند ملتقی الجیشین - و لکل جیش غبار - و صار النهر بین الغبارین، یفترق الغباران بالماء و یلتقیان فوقه والامیر عبر هذا النهر، وکان ماؤه ابیض کالفضة، ولما قتل الروم و جرت فیه دماء القتلی احمَّر لکثرة الدماء، و تجری فی هذا الماء سفن فُتِلَتْ حبالها من شعور النساء، واتخذ خشبها من صلبان المعابد و ذلک یدل علی کثرة الغنائم و السبایا و تجری فی الماء سفن لیس لها الایدی والقوائم و هی عقم لیس لها نسل، سوداء اللون

تحمل النساء التی سبتها الفوارس، کأن النساء فی‌هذه السفن غزلان فی مرابض، و ذلک النهر تعود أن یجیر أهل الروم من حوادث الدهر و یمنع الاعداء من العبور، و سیف الدولة عبره فکأنه استثنی سیف الدولة ولایمنعه. و نری فی‌هذا البیت ان الشاعر اجادفی تشخیص النهر و جعله انساناً یجیر أهله من‌الحوادث و یمنع من العبور ولکنه لم یستطع ان یدفع آل حمدان، کأنه استثناهم و راعاهم.

و یصف المتنبی ساحة القتال و هول المعرکة و شجاعة الممدوح. یصف ممدوحه بأنه یقهر کل القوی وان سیفه یخضع السیوف و ان دینه یخضع الادیان الاخری. بقوله:

خضعت لمنصلک المناصلُ عنوةً　　و أذلَّ دینُکَ سائرَ الادیان

ثم یتابع قوله:

و علی الدروب و فی الرجوع غضاضةٌ　　والسیر ممتنعٌ من الامکانِ
والطرق ضیقة المسالک بالقَنا　　والکفر مجتمعٌ علی الایمانِ
نظروا الی زبر الحدید کأنّما　　یصعَدنَ بین مناکب العِقبانِ
و فوارس یحیی الحمامُ نفوسَها　　فکأنها لیست من الحیوان[۳۶]

یبین الشاعر المعرکة بشکل هائل و یقول قداشتدت الحرب ولم یمکن لنا الانصراف والرجوع لما فیه من العار والذلة و لم یمکن التقدم لضیق الطرق وانسدادها بالسیوف والقنا و کثرة الجیوش المحیطة علی اهل الایمان و فی هذه الحالة نظر الروم الی جیش سیف الدولة و سیوفهم کانها تصعد و تنزل بین مناکب العقبان و نظروا الی فرسانٍ یرون الحیاة فی‌موتهم کانهم لیسوا من الحیوان لانَّ الحیوان اذا ماتَ هلک ولکنهم اذا قتلوا لم یموتوا بل انهم احیاء.

ثم یصف ممدوحه فی صورة بطلٍ لاتروعه روعة و یقول:

ما زلتَ تضربُهم دراکاً فی‌الذُّری　　ضرباً کأن السیف فیه اثنان
خصَّ الجماجم والوجوه کأنما　　جاءَت الیک جسومهم بأمانِ
حرمَوا بما یرمونَ عنه و أَدبَروا　　یطأون کل حنیةٍ مِرنانِ
یغشاهم مطرٌ السحاب مفصّلاً،　　بمهند و مثقفٍ و سنانِ
فُرموا الذی أملوا وادرک منهم　　آمالَهُ من عاد بالحِرمانِ
و اذا الرماحُ شغَلنَ مهجةَ ثائرٍ　　شَغَلَتْه مُهجَتُهُ عن الاخوانِ

هیهات عاقَ عن العوادِ قواضبٌ کثُرَ القتیلُ بها و قَلَّ العانی
و مهذّب أمر المنایا فیهم فأطَعنَه فی طاعة الرحمانِ
قد سوَّدَتْ شجَر الجبالِ شعورُهم فکأنَّ فیه مُسفَّةَ الغربان
و جری علی الورق النجیع القانی فکانه النارنج فی‌الاغصانِ[۳۷]

هو یغیر علی الاعداء و یضرب فی رؤوسهم و اعناقهم ضرباً متتابعاً بکل قوة کأن سیفه سیفان و هذا السیف یضرب فی‌رؤوسهم و وجوههم و لایتعرض لسائر الاجسام، والاعداء یرمون اسلحتهم ثم ینهزمون فیطاؤن فی هزیمتهم مارَموا عنه بأقدامِهم ولکنهم لایستطیعون الفرار فیدرکهم ضربات متتابعة من اکف الفوارس بالسیف والقنا والسنان کالمطر المتتابع الذی ینزل من السحاب، و انهم یحرمون من أملهم وهو الظفر والفوز، و من عاد الی بیته من الهرب و الهزیمة فاز لأنه نجابنفسه و شغله حفظ مهجته عن مهج اخوانه و شغلوا بانفسهم عن ادراک ثأر قتلاهم ولا یستطیعون ان یعودوا الی القتال مرة اخری لکثرة القتلی و قلة الاسری، تمنعم سیوف قواطع کثرت بها القتلی و قل الاسیر لان المسلمین لم یأسروا الاعداء بل قتلوهم و یمنعم من العودة فارس مهذب حکم المنایا فیهم فتطیعه باهلاک نفوسهم، فسوَّدت شعورُ القتلی المنتشرة اشجارَ الجبال کأن الغربان وقعَتْ علیها و جرت دماؤهم علی تلک الاشجار کأنَّ النارنج علِّق بأغصانها

ان الشاعر ابدع فی تشبیه شعور القتلی المتصلة باشجار الجبال بالغربان، و دماءهم الجاریة علی اوراق تلک الاشجار بالنارنج.

النتیجه

و فیما یظهر لنا من اشعار المتنبی أن فیه الشجاعة و الطموح و فیه ولع خاص بالحرب وآلاته، و انه عندما یشهد المعرکة یصور فی اشعاره العواطف التی تجیش فی‌نفسه، والخواطر التی تدور فی رأسه، ولاشک انه فی اشعاره الحربیة یمدح سیف الدولة ولکنه لم یکن یصور سیف الدولة وحده و انما کان یصور نفسه و جماعة المسلمین و جماعة الروم، و نجد أن الفتوة العربیة تشیع قویة مضطرمة فی وصف المتنبی لحروب سیف‌الدولة.

التّعلیقات

۱ـ *الشعر الجاهلی خصائصه و فنونه*، ص ۳۶۵.

۲ـ *تاریخ الادب العربی*، عمر فروخ، ج ۱، ص ۸۰، *تاریخ الادب العربی*، شوقی ضیف، ج ۱، ص ۲۱۴.

۳ـ *تاریخ آداب اللغة العربیه*، ج ۲، ص ۴۶ - *تاریخ الادب العربی*، شوقی ضیف، ج ۳، ص ۱۶۲.

۴ـ *المتنبی شاعرالسیف والقلم*، ص ۲۸.

۵ـ *نفسه*، ص ۲۲

۶ـ *ادباء العرب*، ج ۲، ص ۳۴۶.

۷ـ *الشعر فی العصر العباسی*، ص ۱۹۰.

۸ـ *الشعر الجاهلی خصائصه و فنونه*، ص ۲۹۳.

۹ـ *دیوان المتنبی*، شرح برقوقی، ج ۱، ص ۲۰۰ و ۲۰۱.

۱۰ـ *نفسه*، ج ۲، ص ۳۸۵.

۱۱ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۴۳۸.

۱۲ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۲۹۴.

۱۳ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۳۵۳.

۱۴ـ *نفسه*، ج ۲، ص ۳۸۵.

۱۵ـ *نفسه*، ج ۲، ص ۴۴۱.

۱۶ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۲۸۲.

۱۷ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۲۹۶.

۱۸ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۳۰۳.

۱۹ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۵۲۳.

۲۰ـ *ابوالطیب المتنبی شاعر الطموح والعنفوان*، ص ۵۷.

۲۱ـ *دیوان المتنبی*، ج ۱، ص ۵۲۶.

۲۲ـ *نفسه*، ج ۱، ص ۵۲۸.

۲۳ـ نفسه، ج ۱، ص ۵۲۹.

۲۴ـ نفسه، ج ۱، ص ۵۳۲.

۲۵ـ *الجامع فی تارخ الادب العربی*، حناالفاخوری، ج ۲، ص ۸۱۰.

۲۶ـ *دیوان المتنبی*، ج ۲، ص ۳۵۶.

۲۷ـ نفسه، ج ۲، ص ۳۵۷.

۲۸ـ نفسه، ج ۲، ص ۳۵۹.

۲۹ـ *الجامع فی تاریخ الادب العربی*، ج ۲، ص ۸۱۲.

۳۰ـ *دیوان المتنبی*، ج ۲، ص ۳۷۷ و ۳۷۸.

۳۱ـ نفسه، ج ۲، ص ۳۸۰.

۳۲ـ *التعریف بالمتنبی*، ص ۱۰۰.

۳۳ـ *دیوان المتنبی*، ج ۲، ص ۵۰۰.

۳۴ـ نفسه، ج ۲، ص ۵۰۲.

۳۵ـ نفسه، ج ۲، ص ۵۰۲.

۳۶ـ نفسه، ج ۲، ص ۵۰۴.

۳۷ـ نفسه، ج ۲، ص ۵۰۵.

فهرس المراجع

۱ـ البستانی، بطرس، ادباء العرب فی‌الاعصر العباسیة، دارالجیل، بیروت.

۲ـ الجبوری، الدکتور یحیی، الشعر الجاهلی خصائصه و فنونه، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ۱۴۰۷ هـ ۱۹۸۶م.

۳ـ جرجی زیدان، تاریخ آداب اللغة العربیة، دارالفکر، بیروت، الطبعة الاولی، ۱۴۱۶ هـ ۱۹۹۶م.

۴ـ جوزف الهاشم، ابوالطیب المتنبی، شاعر الطموح و العنفوان، دارالمفید.

۵ـ دیوان المتنبی، شرح عبدالرحمن البرقوقی، تحقیق الدکتور عمر فاروق الطباع، دارالارقم، بیروت.

۶ـ دیوان المتنبی، شرح ابی‌البقاء العکبری، دارالمعرفة، لبنان.

۷ـ شوقی ضیف، تاریخ الادب العربی، العصر العباسی، الطبعة الثامنة، دارالمعارف، قاهرة.

۸ـ عطوی، الدکتور علی نجیب، الشعر فی‌العصر العباسی، مؤسسة عزالدین للطباعة والنشر، ۱۴۱۳ هـ ۱۹۹۳م.

۹ـ عطوی، الدکتور فوزی، المتنبی شاعر السیف والقلم، دارالفکر، بیروت، الطبعة الاولی، ۱۹۸۹ م.

۱۰ـ الفاخوری، حنا، الجامع فی‌تاریخ الادب العربی، دارالجیل، بیروت، الطبعة الاولی، ۱۹۸۶ م.

۱۱ـ فاضلی، محمد، التعریف بالمتنبی، دارجامعة مشهد للنشر، ۱۳۷۲ هـ ش

۱۲ـ فروخ، عمر، تاریخ الادب العربی، دارالعلم للملایین، الطبعة السابعة، ۱۹۹۷م.